

الباب الأول

ملاح شخصية ابن خلدون

- شخصية ابن خلدون
- منهج المقدمة
- ابن خلدون في مصر وأثرها فيه

obeikandi.com

ملاح شخصية ابن خلدون

(١)

شخصية ابن خلدون

يعدّ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون من الشخصيات الإسلامية الفذة في العصور الوسيطة ، وهو وإن كان مغربي الميلاد والنشأة والثقافة - فقد ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) وظل يقيم في أقطار المغرب حتى سنة ٧٨٤هـ - فإنه قسمة بين المغرب والمشرق ؛ لأنه عاش في هذا القسم الثاني من الوطن الإسلامي ، وفي مصر على وجه التحقيق ، ما يناهز ربع قرن من الزمان ، فقد وصل إلى القاهرة سنة ٧٨٤هـ وتوفي ودفن في مقبرها سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) .

كانت شخصية ابن خلدون جذابة من كل جوانبها ، ولكن جانبيين اثنين منها قد جذبا أنظار القدامى والمحدثين من الباحثين ، أما الجانب الأول فهو الجانب الفكري والثقافي ، وأما الجانب الثاني فهو الجانب السياسي .

فأما الجانب الثقافي فيتمثل في تحصيل ابن خلدون للعلم ثم عطائه فيه ، ذلك العطاء الوفير المتسم بعمق الفكر ودقة استقراء الأحداث ، ففي الجانب التحصيلي حفظ القرآن ودرس علومه ، كما درس الحديث الشريف والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ وأضاف إلى ذلك كله دراسة المنطق والفلسفة ، وقد كان بعض علماء زمانه لا يحفلون كثيراً بدراسة العلمين الأخيرين ، بل يحرمون دراستهما .

ولقد جلس ابن خلدون للتدريس في أكثر البلدان التي حل بها ، وكانت المساجد الكبرى والمدارس الشهيرة دون سواها مقار لحلقات دروسه ، كما كان تلاميذه من صفوة الدارسين الذي صاروا علماء مرموقين فيما بعد .

إن أهم الأماكن التي قام بالتدريس فيها جامع القصبة في مدينة بجاية ، وجامع القرويين في فاس ، والجامع الأزهر في القاهرة ، والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ابن العاص في الفسطاط ، والمدرسة الظاهرية البرقوقية في حي بين القصرين في القاهرة المعزية والمدرسة الكاملية .

إن التدريس في هذه الأماكن لم يكن ميسوراً لجمهرة العلماء ، وإنما كان مقصوراً على خاصتهم والصفوة من بين صفوفهم ، وكان لا يتم إلا بأمر من السلطان . ولقد جلس إلى ابن خلدون في مصر بعض التلاميذ الذين صاروا من مشاهير علماء الإسلام فيما بعد ، مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني ، ومؤرخ الإسلام تقي الدين المقرئزي ، وقد وصفا حلقات دروسه وصفاً عظيماً .

ونحن حين نلمح إلى مسيرة ابن خلدون في تحصيل العلم ، ثم في الجلوس لنشره على الدارسين لا يجمل بنا أن نهمل الإشارة إلى فترة عزله للقراءة والتأليف ، ففي الخامسة والأربعين من عمره اعتزل الناس وآوى إلى أحد قصور بني عريف في قلعة ابن سلامة ، التي تقع في مدينة ندرومة الحالية التابعة لولاية تلمسان غير بعيد عن الحدود الجزائرية المغربية ، وظل بها عاكفاً على الكتابة لمدة أربع سنوات أخرج فيها كتابه « العبر » و « المقدمة » المشهورة التي هي في حقيقتها مقدمة للكتاب ، والتي أثارَت كثيراً من الجدل للجرأة التي اتسمت بها محتوياتها التي صارت نظريات جديدة في علمي التاريخ والاجتماع .

ومن عجب أن كتابه « المقدمة » لم يستغرق من المؤلف - حسب تقريره - أكثر من خمسة أشهر في النصف الأول من سنة ٧٧٦هـ ، في حين استمر عمله في كتابة التاريخ بقية السنوات الأربع التي تفرغ فيها للكتابة .

إن ابن خلدون يقرر ذلك في القسم الذى أرخ فيه حياته من كتابه « العبر »
(التعريف) فيقول : « فأقمت بها - أى بقلعة ابن سلامة - أربعة أعوام متخلياً عن
الشواغل كلها ، وشرعت أضع هذا الكتاب وأنا مقيم بها ، وأكملت المقدمة منه على
هذا النحو الغريب الذى اهتمت إليه فى تلك الفترة ، فسالت فيها شآبيب الكلام
والمعانى على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها » ..

وبهذه المناسبة لم يكن ابن خلدون الوحيد بين علماء المسلمين الذين أرخوا
لحياتهم ، فهم من الكثرة بمكان ، وإن الترجمات الذاتية التى وصلت إلينا تحفل بكل
غريب وتفيض بكل عجيب ، ولكن ابن خلدون ينفرد بضرب من القول ملفت للنظر
ومحرك للفكر حين يذكر أنه أكمل المقدمة « على هذا النحو الغريب الذى اهتمت
إليه ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر » .

لقد كان ابن خلدون يعرف قيمة ما توصل إليه ، وغرابة ما أتى به من فكر
ونظريات قبل أن يلتفت إلى ذلك دارسوه والمهتمون به من المستشرقين .
هذا هو ابن خلدون من الجانب العلمى - فى سطور قليلة - تحصيلاً ثم تدريساً
وعطاءً ، وبين الفترتين تفرغاً وكتابةً وإبداعاً .

ولكن لا ينبغى أن تصرفنا شخصية ابن خلدون عن التقرير بأنه لم يكن العالم
الأوحد فى زمانه - طبقاً لتصوير خاطئ عند كثير من الناس - فلقد كان هناك معات
غيره ، معاصرون له ، ذوو مكانة فى العلم رفيعة ، وسادة فى الفكر عالية ، ويمكن
الرجوع فى ذلك على سبيل المثال لا الحصر إلى « الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة
الثامنة » للسان الدين بن الخطيب صديق ابن خلدون ، و « الدرر الكامنة فى أعيان
المائة الثامنة » لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى تلميذ ابن خلدون ،
و « الضوء اللامع » للسخاوى ، غير أن ابن خلدون هو أعلاهم صوتاً ، وأبعدهم
صيتاً ، وأغربهم فكراً ، وأجرأهم على الاستقراء والابتكار ، بغض النظر عن صواب ما
توصل إليه أو خطئه .

أما الجانب الآخر من حياة ابن خلدون فهو الجانب السياسي ، ذلك أن ابن خلدون كان رجل سياسة إلى جانب كونه رجل فكر وعلم وثقافة ، ولقد أفاد من السياسة كثيراً ، فتقلد أسمى المناصب من وزارة وسفارة وحجاية ، كما أنه لقي منها أسوأ العواقب فدخل بسببها الحبس أكثر من مرة .

ويمكن القول في هذا السبيل إن شخصية ابن خلدون كانت تجتذب أنظار السلاطين والرؤساء ، فلقد اجتذبت شخصيته نظر سلطان تونس ، فعينه في منصب « كاتب العلامة » ولما يكن قد بلغ الثامنة عشرة من سنه ، كما جذبت أنظار السلطان أبي عنان المريني ، فعينه عضواً بمجلسه ، وكلفه شهود الصلوات معه ولما يتجاوز الثانية والعشرين ، وعينه بعد ذلك السلطان أبو سالم المريني في منصب كاتب السر والإنشاء ، ثم قلده **خطة المظالم** ، وحين ذهب ابن خلدون إلى غرناطة أرسله السلطان محمد بن الأحمر سفيراً إلى أمير قشتالة للتوسط في إبرام صلح بينهما .

وحين عاد ابن خلدون من الأندلس ونزل على أمير بجاية قلده **الحجاية** ، وهي أعلى منصب في الدولة ، بحيث كان يسوس من خلاله أمر المملكة ، ويصف ابن خلدون عمله في هذا المنصب قائلاً : « فأصبحت من الغد وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بائي ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدير سلطانه ، وقدمني للخطابة بجامع القصبه ، وأنا مع ذلك عاكف بعد انصرافي من تدير الملك غلوة إلى تدريس العلم في أثناء النهار بجامع القصبه لأنفك عن ذلك » .

ولما ارتحل إلى مصر لم يكد يمضي فيها عامين حتى عين قاضياً للقضاة على مذهب الإمام مالك ، ولقد تقلد هذا المنصب ست مرات فلم يكن يكاد يستقر فيه حتى يعزل منه ، ثم يعاد إلى المنصب ، ثم ينحى عنه ، وهكذا دواليك عدة مرات إلى أن توفي بعد ولايته السادسة بأيام .

وكان ابن خلدون وهو في مصر مقرباً من السلطان الناصر فرج ، فاصطحبه معه

في رحلته إلى دمشق حين توجه للملاقاة تيمورلنك ، الطاغية المغولى الذى كانت جيوشه قد اكتسحت المشرق الإسلامى جميعاً .

على أن الظاهرة التى تلفت النظر إلى شخصية ابن خلدون بشكل أكثر عمقاً هى أنه لم يكن يجتذب اهتمام ملوك المسلمين وسلاطينهم وحدهم ، وإنما كان يجتذب اهتمام الملوك الغزاة والمعتدين أيضاً ، بحيث يألفونه ويقربونه إليهم ، ويعرضون عليه العمل معهم والبقاء فى بلاطهم .

لقد سلف القول إن السلطان محمد بن الأحمر أرسل ابن خلدون سفيراً عنه إلى أمير قشتالة للتوسط فى عقد صلح بينهما ، وفى تلك السفارة انتهز ابن خلدون الفرصة ، فزار ديار أهله فى إشبيلية ، حيث كانوا يستوطنونها قبل سقوطها فى يد الفرنجة . لقد بلغ من إعجاب الأمير القشتالى بابن خلدون مبلغاً كبيراً ، حتى إنه عرض عليه أن يرد عليه جميع أملاك أسلافه إن رضى بالإقامة عنده .

وحين التقى ابن خلدون بتيمورلنك ، وتمت المقابلة بالطريقة المثيرة التى أوردتها كتب التاريخ لكى يطلب الأمان لسكان دمشق - فقد نزل متديلاً بالحبال من سور المدينة حيث صاحبه القادة المغول إلى سلطانهم - أحسن السلطان لقاءه ورحب به ، ولم تكن تلك سبيل القائد المغولى فى لقاء الناس ، فقد كان فظاً خشناً سفاكاً للدماء ، ولكن شخصية ابن خلدون ولباقته جذبته إليه بحيث حاول استبقائه لديه طبقاً لبعض الروايات ، وذلك فضلاً عن تكليفه إياه كتابة كتاب عن بلاد المغرب .

لقد كانت شخصية ابن خلدون جذابة للخاصة والجمهرة على حد سواء ، كما كانت أكثر جاذبية للملوك والرؤساء ، وليس لذلك من علة إلا صفات بعينها تجمعت فيه ، ففرد بها دون كثيرين غيره من معاصريه ، ولعل أدق وصف لشخصية ابن خلدون هو قول صديقه وخصمه فى الوقت نفسه لسان الدين ابن الخطيب . إن لسان الدين يقرر أنه « رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، خاص الزى ، على الهمة ، عزوف عن

الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزاي ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مُغرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، عاكف على رعى خلال الأصالة » .

إن لسان الدين بن الخطيب كان واحداً من قادة عصره - وعصر ابن خلدون - علماء وفكراً وأدباً وسياسة ، وهو يجيد الحكم على الرجال ، أما وهو صاحب قلم مطواع فإنه قد أحسن تصوير شخصية ابن خلدون في تلك الكلمات القليلة التي سطرها في تسجيل صفات ذلك العالم الكبير .

إن ابن خلدون المعلم والقاضى لا يعيننا كثيراً في هذا المجال ، فقد جلس للتعليم قبله مئات من الأساتذة العظام ، وكذلك الحال فيما يتعلق بابن خلدون القاضى ، ذلك أن ابن خلدون لم يدخل تاريخ الفكر الإسلامى من أى من هذين السيلين ، ولكنه دخله كواحد من كبار المفكرين المسلمين ، ثم الإنسانين ، وقد أهله لذلك بعض صفاته التي سجلها لسان الدين في قوله : « متعدد المزاي ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، عاكف على رعى خلال الأصالة » .

هذه المزاي هي التي جعلته يستقرئ التاريخ أحسن استقراء ، ثم يعيش بين الناس دارساً خلاهم ، متفحصاً ذواتهم مجتمعين ومتفرقين ، متحضرين وبادين ، متعلمين وعامة ، حرفيين وزرّاعاً ، رؤساء ومرعوسين ، وانتهى بعد ذلك إلى تصورات سجلها ، وأحكام أصدرها ، ونظريات قررها ، عامداً في ذلك إلى التحليل الجيد والتبرير المقبول ، وجعل ذلك جميعاً مقدمة لكتابه الذى ألفه في التاريخ ، ثم داعت شهرتها منفصلة عن تاريخه فعرفت بالمقدمة .

منهج المقدمة

إن براعة ابن خلدون في المقدمة لا تقف عند المحتوى وحده ، ولكنها تتمثل في المنهج والمحتوى على حد سواء . إنه يضمها كل ما يتصل بال عمران الإنسانى من أسس وقواعد وتفريعات وتحليلات واستقرارات ونتائج ، الشيء الذى جعل منها الأساس الأول لما قد عرف فيما بعد بعلم الاجتماع ، وإن كان لفظ العمران الذى اختاره ابن خلدون يعتبر من وجهة نظرنا أقرب إلى الدقة وأدنى إلى الحقيقة ، وها نحن نسوق هذا التلخيص لمحتوى المقدمة ، ذلك المحتوى الذى يضع ابن خلدون - دونما سبق أو مشاركة أو منافسة - في مقام الريادة الفكرية والقيادة الذهنية لعلم العمران البشرى الذى عرف مؤخراً بعلم الاجتماع .

أولاً : في العمران البشرى على الجملة ، وأصنافه وقسطه من الأرض :

وفيه يقرر أن الاجتماع الإنسانى ضرورة لا مفر منها ، كما يتحدث حديثاً جغرافياً طويلاً يفصل فيه القول عن البيئة الجغرافية ، وأثرها في أخلاق الناس وألوانهم وطبائعهم وأساليب حياتهم وطرائق معيشتهم ، ثم يستطرد إلى تناول موضوعات : الوعى والرؤيا والتبؤ بالغيب والنبوة ، والكهانة ، والتصوف .

ثانياً : في العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية :

وفي دراسات عن الشعوب البدوية ، ونشأتها ، وألوان من حياتها وطبائعها ، وأساليب الحكم والسياسة المرتبطة بها .

ثالثاً : في الدول ، والخلافة ، والملك ، والمراتب السلطانية :

وفيه يعرض المؤلف لشئون الحكم والسياسة بكثير من التفصيل ، وفيه تظهر نظريته في الإمامة والخلافة وولاية العهد والقضاء والوزارة والدواوين وما إليها .

رابعاً : في العمران الحضري والبلدان والأمصار :

يتحدث فيه عن نشأة المدن والأمصار ومواطن التجمع البشري ، ثم يفرد حديثاً للمدن وما تتميز به من ناحية العمران والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي والتطور اللغوي .

خامساً : في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه :

يتحدث فيه عن المعاش وأصنافه ومذاهبه ، من وظائف متعلقة بالدين ، كالقضاء والإفتاء والتدريس ، وأخرى كالزراعة ، والتجارة ، والصناعات التي يعدها أنواعها ، كالبنا والبناء والتجارة والحياكة والخياطة والطب والوراقة والغناء . ويربط المؤلف بشكل أساسي بين الصناعة والمدن .

سادساً : في العلوم واكتسابها وتعلمها :

في هذا الفصل يربط بين العلم والتعليم العمراني البشري ، ويجعل العلم من جملة الصنائع ، ثم يفصل القول في أصناف العلوم ، ويقسمها إلى علوم القرآن ، وعلوم الحديث ، وعلوم الفقه ، وعلوم التصوف ، والعلوم العقلية ، والعلوم العددية ، والعلوم الهندسية ، وعلوم الهيئة ، وعلوم الطبيعيات ، والمنطق ، والطب ، والزراعة ، والإلهيات ، والسحر . وقد أفاض ابن خلدون في الحديث عن هذه العلوم وفروعها إضافةً تدل على قدر كبير من الثقافة وطاقة ضخمة من الاستيعاب .

(٣)

ابن خلدون في مصر وأثرها فيه

قبل أن نختم الحديث في هذا السياق المختصر عن شخصية ابن خلدون يجمل بنا أن ننوه بأثر البيئة المصرية في شخصيته وفكره . لقد عاش ابن خلدون أحد النصفين الناضجين من حياته في مصر ، وذلك على اعتبار أن فترة نضجه استمرت نحواً من

خمسين سنة ، وليس من شك في أن مرحلة التكوين الثقافي والنشأة العلمية والعطاء الفكرى قد استكملت حلقاتها قبل مجيئه إلى مصر ، ولقد حدث ذلك مع أعلام كبار وفدوا إلى مصر قبله ، ومع ذلك فقد صنعت الحياة المصرية تحولاً ملموساً في فكرهم وعطائهم ، وإذا كان المجال هنا يضيق عن حصر نماذج الرجال الذين تأثروا بالحياة في مصر ، فإننا نكتفى بضرب بعض الأمثلة لعدد من عظماء الأمة الإسلامية مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعى في مجال الفقه ، وأبى الطيب المتنبي في مجال السلوك والشعر ، والمسعودى في مجال التاريخ .

فأما الإمام الشافعى فقد أعاد النظر في فقهه حين استقرّ به المقام في مصر ، حتى « رسالته » المشهورة أعاد صياغتها في مصر ، وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل في شأن فقه الإمام الشافعى في مصر وقبل مصر ، وأبى الفقهاء ينبغي الأخذ به ، فكانت إجابته أن الفقه الشافعى الأكثر اعتماداً هو ذلك الذى كتبه الإمام في مصر ، والشيء ذاته يقال عن أبى الطيب المتنبي ، فلقد حدث تطور في سلوكه إبان حياته في مصر ، فصار يتصل بالناس ويكثر من اتخاذ الأصدقاء ، ويختلف إلى مجالس العلماء في جامع عمرو ، ويتردد على دكاكين الورّاقين ، ويجلس إليهم الساعات الطويلة ، وأما من ناحية فنه وفكره في مجال الشعر ، فقد تحول المتنبي من داعية للعنف ودقاق لطبول الحرب إلى داعية مودة بين الناس ، ومبشر بالسلام ، ومستكر لأساليب العنف بين البشر ، ولعله قد أحسن تصوير مذهبه هذا في قصيدته النونية البليغة التى مطلعها :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِنْ أُمَرِهِ مَا عَنَانَا

ونستطيع تطبيق الرأى نفسه على المسعودى الذى وفد إلى مصر وأقام فيها السنوات الأخيرة من عمره ، وفيها أنتج كثيراً من التأليف ، ونقح كتبه السابقة ، ويعتبره ابن خلدون على رأس المؤرخين المسلمين .

نعود إلى صاحبنا ابن خلدون وحياته في مصر ، فنجد أنه قد وفد إليها محباً مشوقاً ، فلقد سمع عنها أنها بلاد الخير والرخاء ، وأنها عاصمة العلم والنور ، ولقد ذكر

ذلك في القسم الخاص بالعلم والعمران في المقدمة ، فلما عزم على الحجى إليها كان هدفه الإقامة والاستقرار ، وما إن وطئت قدماه أرضها حتى لمس أن الحقيقة أبلى من الخبر « وليس رأى كمن سمعا » وها هو ذا يصفها بقلمه فيقول :

« فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة - ٧٨٤هـ - فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومنرج النر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكروى الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بأفائه ، وتضئ البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويحيى إليهم الثمرات والخيرات ثجّه .

ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ، ومازلنا نحدث عن هذا البلد وبُعد مداه في العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا - حاجّهم وتاجرهم - بالحديث عنه .

سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرئ مقدّمه من الحج سنة أربعين - يعني أربعين وسبعائة - فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام . وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أئمة وأمنهم العواقب . وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجى بمجلس السلطان أنى عنان ، مُنصّرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إن الذى يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها ^(١) .

(١) التعريف بابن خلدون ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

نعود إلى ابن خلدون وحياته في مصر فنقرر أنه ارتبط بها ارتباطاً عضوياً يتمثل فيما يلي :

أولاً : أنه عاش في مصر ما يناهز ربع قرن من الزمان ، على وجه التحديد من سنة ٧٨٤ إلى وفاته سنة ٨٠٨ هـ ، وكانت هذه الحياة موصولة متتابعة لم تقطعها إلا رحلات محدودة .

ثانياً : في إبان حياته بمصر عمل ابن خلدون على تنقيح كتابه الكبير « العبر » كما صنع فيه إضافات هامة تمثلت في أخبار دول المشرق الإسلامي ، ووصل بأحداث التاريخ إلى نهاية القرن الثامن الهجري بعد أن كان وقف بها عند سنة ٧٨٣ ، وهي السنة السابقة على مجيئه إلى مصر . يذكر ابن خلدون عن رحلته إلى المشرق وإقامته في مصر أنه أفاد ما نقص من أخبار ملوك العجم ودول الترك قائلاً : « ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره ، والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره ، فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار ، وأتبعته بها ما كتبت في تلك الأسطر ، وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي ، وملوك الأمصار والضواحي ، سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص ، مفتدياً بالمرام السهل من العويص ، داخلاً من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص ، فاستوعب - أي الكتاب - أخبار الخليقة استيعاباً ، وذلك من الحكم النافرة صعباً ، وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً ، وأصبح للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً » .

ولقد فعل ابن خلدون وهو في مصر نفس الصنيع بالمقدمة ، فأجرى بها بعض الزيادات التي اقتضتها الإقامة ، وأضاف إليها بعض المكتسبات التي طرأت على حصيته العلمية والفكرية ، وهو يقرر ذلك في سياق بعض فصول المقدمة مثل قوله في الفصل الذي خصصه للعلوم العقلية : « ولقد وقفت بمصر على تأليف متعددة لرجل من

عظماء هَرَاة^(١) من بلاد خراسان ، يَشْتَهَرُ بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان ، تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعاً على العلوم الحِكْمِيَّةِ ، وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية^(٢) .

وإذن فآثر مصر في ابن خلدون واضح الوضوح كله ، ولقد كتب غير قليل من فصول المقدمة في مصر ، وأغلب ظننا أن الفصول الخاصة بعلم الكلام وعلم التصوف وفصول العلوم العقلية قد كتبت في مصر وأضيفت إلى المقدمة ، أو أعيدت صياغتها في مصر بعد الإضافات الكثيرة التي أشار إليها في غير موضع من مواضع الكتاب .

ومن البدهة بمكان أن يكون ابن خلدون قد أضاف إلى الترجمة التي كتبها لنفسه - وألحقها بالمجلد الأخير من كتاب العبر - تفاصيل حياته في مصر بكل ما احتوته من أعمال وما اشتملت عليه من أحداث .

ثالثاً : تولى ابن خلدون التدريس في مدارس متعددة في مصر سبقت الإشارة إلى أنها مدارس متميزة المكانة عالية الرتبة ، كما تولى التدريس في الأزهر الشريف ، واستطاع من خلال ذلك أن ينقل أفكاره إلى عدد كبير من الدارسين المصريين ونظرائهم الوافدين إلى مصر لطلب العلم في معاهدها والالتحاق بمدارسها ، ولقد خلف المفكر الكبير عدداً من التلاميذ المصريين النابهين حملاً سلفت الإشارة ، لعل في مقدمتهم شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني ، وتقى الدين المقرئ ، كان الأول تلميذه في فنون عديدة من المعارف الدينية والدنيوية التي أهمها الفقه والحديث والتاريخ والتراجم ، وكان الثاني تلميذه في التاريخ ، وقد صار تبعاً لذلك شيخ المؤرخين المصريين في العصر المملوكي ، بل شيخ المؤرخين المسلمين بعامة في عصره .

رابعاً : من الوظائف التي تولها ابن خلدون في مصر منصب شيخ خانقاه بيبرس ، وكان بمصر عدد كبير من الخانقاهات التي يتجمع فيها الصوفية ، وكانت

(١) موقعها حالياً في أفغانستان « هرات » بكسر الهاء في أولها وتنطق بالياء المفتوحة في آخرها .

(٢) المقدمة ص ٤٨١ الطبعة الثالثة - بيروت .

خائفه بيرس من أكبر ما عرف من هذا النمط من المؤسسات ، وفيها كان يعيش عدد كبير من الصوفية يمارسون حياتهم الخاصة ذات الطقوس الغريبة ، من ذكر وتلاوة وأوراد وإقبال على العبادة وانقطاع عن الناس ، ولقد كانت مخالطة ابن خلدون لهؤلاء الصوفية عن قرب واندماج ، دافعة له في تسجيل الجديد من الأفكار عن هذا الفريق من المسلمين .

خامساً : هيأت إقامة ابن خلدون في مصر له القيام بثلاث رحلات ذات أهمية كبيرة ، الأولى كانت لأداء فريضة الحج ، والثانية سافر فيها إلى فلسطين وفيها زار بيت المقدس ، والثالثة كانت إلى دمشق في صحبة السلطان فرج حين توجه لملاقاة تيمورلنك الذي كانت جيوشه قد اكتسحت مشرق العالم الإسلامي ، وقد سعى ابن خلدون للقاء القائد المغولي لكي يطلب الأمان لأهل دمشق . لقد كانت سفارة غريبة ، ولكن ابن خلدون ، وهو رجل سياسة إلى كونه واحداً من كبار علماء الزمان ، قد استطاع أن يكسب احترام تيمورلنك ، وجرت بينهما أحاديث ودية طويلة ، وربما طمع العالم الكبير في أن يلتحق بخدمة الطاغية المغولي ، ولكن أسباباً بعينها قد قعدت به عن إدراك مضمحه ، ولعل من أهم ثمرات ذلك اللقاء هو الكتاب الذي ألفه ابن خلدون للقائد المغولي عن بلاد المغرب استجابة لطلبه .

سادساً : لقد أوسعت مصر لابن خلدون صدرها ، فولى فيها المناصب الرفيعة ، وأصهر إلى بعض أسرها ، وكان أفراد أسرته قد ماتوا جميعاً غرقاً وهم في الطريق إلى مصر بحراً حين أرادوا اللحاق به . واقتنى ضيعة في الفيوم كانت تمتد بالخير والنعمة ، ثم إن ثراها في نهاية الأمر قد ضم رفاته ، فقد أسلم العالم الكبير الروح فجأة وانطفأ سراج حياته في السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٠٨ هـ ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر ، وكانت أولى لياليه في حياته الأخرى هي ليلة القدر بعد أن عمّر ستة وسبعين عاماً هجرية .

